ALL IN! مع جوردان إيزلي

لماذا القلق؟

أسئلة سألها يسوع | الجزء الثالث | متى ٦:٢٥-٣٤

مقدمة

قبل مدّة، أضاعت شركة الطيران مضارب الغولف الخاصة بي، ولم تكن مضاربَ عاديّة، بل جديدةً تمامًا، مصنوعةً على مقاسي، في رحلةٍ باتجاهٍ واحد. لشهرين اتّصلتُ، وانتظرتُ على الخطّ، وملأتُ الاستمارات، وفي النهاية لم أنَلْ سوى شيكٍ بنصف قيمتها. فاشتريتُ طقمًا جديدًا وأقسمتُ ألّا أسافر بها ثانيةً. والأسبوع الماضي، سافرتُ بها ثانيةً. وحين هبطتُ، وقفتُ عند سير الأمتعة أشاهد مئات الحقائب تمرّ، ولا واحدةٌ منها لي. كان قلبي يخفق وعقلي يرسم أسوأ السيناريوهات، حتى أدركتُ شيئًا: كنتُ واقفًا عند السير الخطأ. كانت مضاربي على بُعد ستة أمتارٍ فقط طوال الوقت، عند السير الصحيح، تنتظر مجيئي. أليس هذا تمامًا ما يفعله القلق؟ نقف في المكان الخطأ، ونركّز على الأمور الخطأ، ونعيد رسم السيناريوهات في أذهاننا، بينما السلام الذي نبحث عنه كان هناك طوال الوقت، ينتظر أن نتوقّف ونثق بالله.

لهذا سأل يسوع سؤاله في متى ٦:٢٧: «مَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يُضِيفَ لَحْظَةً وَاحِدَةً إِلَى حَيَاتِهِ؟». سأله لأنه عرف الحقيقة: القلق لا يزيد، بل يُنقِص فقط. لن يجعل يومك أطول أو حِملك أخفّ؛ بل سيجعل قلبك أثقل فحسب. القلق من الأمور القليلة التي تربطنا جميعًا، مهما بلغَت روحانيّتنا أو طالت مدّة اتّباعنا ليسوع، ومعظم ما نقلق بشأنه خارجٌ تمامًا عن سيطرتنا. قال يسوع هذا على تلّةٍ أثناء العظة على الجبل، محاطًا بأناسٍ عاديّين—فلّاحين، وصيّادين، وأمّهات، وعمّال مياومة—عاشوا بمخاوفَ حقيقيّة حول طعامهم القادم وبقائهم على قيد الحياة. لم يكن يوبّخهم، بل يرعاهم، كاشفًا بلطفٍ عبثيّة القلق ليقودهم إلى حرّية الثقة. إنه لا يسألك السؤال ليُدينك، بل ليدعوك إلى السلام. ولكي يوصلنا إلى هناك، يعطينا ثلاثة تحوّلات: ثلاث مبادلاتٍ مقدّسة تنقلنا من القلق إلى العبادة، ومن الذعر إلى الصلاة، ومن السيطرة إلى التسليم.

النقاط الرئيسية

١. لا تقلق فحسب: اعبُدْ

حين يقول يسوع: «لاَ تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ» (متى ٦:٢٥)، فهو لا يطلب منك أن تكفّ عن الاهتمام أو أن تتظاهر بأن مشاكلك غير موجودة، بل يطلب أن تكفّ عن العيش وكأنك وحدك فيها. الكلمة اليونانية لـ«القلق»، ميريمناو، تعني حرفيًّا «أن تنقسم» أو «أن تتمزّق»، وهذا بالضبط ما يفعله القلق: عقلك يجري في اتجاه بينما إيمانك يُجذَب في اتجاهٍ آخر. لذا يشير يسوع إلى السماء ويقول: «اُنْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ

بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا؟» (عدد ٢٦). ذلك الطائر على سياجك لا يذرع الأرض قلقًا بشأن فطوره، بل يغرّد فحسب ويفعل ما خلقه الله له، وبطريقةٍ ما يعول الله كلَّ يوم. فإن كان الله يعتني بالطيور، أفلا تظنّ أنه يعتني بالناس الذين صنعهم على صورته، تاج خليقته؟

هذه هي الحقيقة الكامنة تحت كل شيء: القلق عبادةٌ موجَّهة في الاتجاه الخطأ. ما تركّز عليه أكثر يصير ما تخافه أكثر، وفي النهاية ما تخافه هو ما تتبعه. ركّز على مشاكلك فتبدو دائمًا أكبر من إلهك؛ ركّز على مُعيلك فترى أنه كان أكبر من مشاكلك طوال الوقت. القلق يُضخّم الفوضى؛ والعبادة تُضخّم المسيح، ولهذا يصعب جدًّا فعل الاثنين في آنٍ واحد. حين تعبد وأنت قلقٌ، قد لا تتوقّف العاصفة، لكنّ نفسك تبدأ تستقرّ. تعلّمتُ هذا في المواسم التي كان فيها القلق ينتصر، حين أستيقظ الثالثة فجرًا وعقلي يجري: أدوّن ما يثقل عليّ، ثم أستلقي وأشكر الله على ما لا يزال صالحًا—سقفٌ فوق رأسي، وعائلتي، ونَفَسٌ في رئتيّ. الشكر والقلق يصعب أن يتماسكا بالأيدي. لذا يقول الكتاب: «لاَ تَهْتَمُّوا بِشَيْءٍ، بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالصَّلاَةِ وَالدُّعَاءِ مَعَ الشُّكْرِ، لِتُعْلَمْ طِلْبَاتُكُمْ لَدَى اللهِ. وَسَلاَمُ اللهِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ عَقْلٍ يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ» (فيلبي ٤: ٦-٧). العبادة تبني حصنًا حول سلامك وتُقيم حارسًا اسمه «سلام» على باب قلبك. اسأل بولس وسيلا، اللذين في منتصف الليل في سجنٍ بفيلبّي اختارا أن يرنّما تسابيح بدلًا من أن يغرقا في الخوف، وبينما كانا يسبّحان، زلزل الله السجن وأطلقهما. هذا ما تفعله العبادة: تزلزل ما بناه القلق. فحين تنغلق عليك الجدران، افعل ما قاله يسوع: انظرْ إلى فوق. سلامك لا يأتي مما تسيطر عليه، بل ممّن تثق به.

٢. لا تذعَرْ فحسب: صَلِّ

ردّ فعلنا الطبيعيّ تحت الضغط هو الذعر. يتّصل الطبيب، ويرسل المدير بريدًا، وتصدر السيارة صوتًا غريبًا، وفورًا يتسارع قلبنا ويتخيّل عقلنا كل نتيجةٍ ممكنة إلّا تلك التي فيها الله لا يزال مسيطرًا. عرف يسوع هذا عنّا، لذا ظلّ يُلحّ بالسؤال: «مَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يُضِيفَ لَحْظَةً وَاحِدَةً إِلَى حَيَاتِهِ؟». إنه يقول، في الواقع: «تظنّ أن قلقك مُنتِج، لكنه ليس كذلك». ثم يشير إلى الزهور: «وَلِمَاذَا تَهْتَمُّونَ بِاللِّبَاسِ؟ تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو! لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَغْزِلُ. وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا. فَإِنْ كَانَ عُشْبُ الْحَقْلِ الَّذِي يُوجَدُ الْيَوْمَ وَيُطْرَحُ غَدًا فِي التَّنُّورِ، يُلْبِسُهُ اللهُ هَكَذَا، أَفَلَيْسَ بِالْحَرِيِّ جِدًّا يُلْبِسُكُمْ أَنْتُمْ يَاقَلِيلِي الإِيمَانِ؟» (عدد ٢٨-٣٠). إنه لا يسخر منهم بقوله «يا قليلي الإيمان»، بل يذكّرهم بأن أباهم أمين. إن كان الله يُلبِس العشب الزائل، فبالتأكيد سيعتني بك.

لهذا لا معنى للذعر في ملكوت الله: الذعر يقول «الأمر متروكٌ لي»، أما الصلاة فتقول «الأمر متروكٌ له أصلًا». يتابع يسوع: «فَلاَ تَهْتَمُّوا قَائِلِينَ: مَاذَا نَأْكُلُ؟ أَوْ مَاذَا نَشْرَبُ؟ أَوْ مَاذَا نَلْبَسُ؟ فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا تَطْلُبُهَا الأُمَمُ. لأَنَّ أَبَاكُمُ السَّمَاوِيَّ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هَذِهِ كُلِّهَا» (عدد ٣١-٣٢). الذين لا يعرفون الله يُمضون حياتهم يطاردون هذه الأمور ويذعرون بشأنها، لكنك لستَ منهم. لك أبٌ يعرف حاجتك قبل أن تطلب، فلا حاجة أن تعيش كيتيمٍ والسماء في صفّك. تذكّر أن كلمة القلق، ميريمناو، تعني أن تتمزّق، وهذا ما يفعله الذعر، إذ يمزّق سلامك قطعةً قطعة. أما الصلاة فتجمع تلك القطع وتردّها إلى الله؛ بها تُعيد مواءمة قلبك مع السماء. كل فكرٍ قلق هو في الحقيقة دعوةٌ لتكلّم أباك، وكل خفقةٍ متسارعة هي إشارتك للصلاة. حين يمرض أولادك، صلِّ أولًا. حين تضيق الأحوال المالية،

صلِّ أولًا. حين يثقل قلبك، صلِّ أولًا. حين يضبّب المستقبل، صلِّ أولًا. لأن الصلاة ليست تظاهرًا بأن كل شيءٍ بخير، بل إعلانٌ بأن الله لا يزال أمينًا.

٣. لا تطلب السيطرة فحسب: اطلب الملكوت

وبينما يختم يسوع هذا الجزء من عظته، يعطينا واحدةً من أشهر الآيات في كل الكتاب: «لَكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهَذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ» (متى ٦:٣٣). هذه الآية مفتاح كل شيء، لأن القلق ليس في الحقيقة عن ظروفك، بل عن أولوياتك. القلق ينمو حيثما لا يكون الله أوّلًا. حين يكون عملك أوّلًا، ستقلق على عملك؛ وحين يكون أولادك أوّلًا، ستقلق على أولادك؛ وحين يكون المال أوّلًا، ستقلق على المال. لكن حين يكون ملكوت الله أوّلًا، يتبع السلام. كلمة «اطلبوا» تعني السعي بشغفٍ وأولويّة، فيسوع يقول: «كُفّ عن تقديم الزائل وابدأ بمطاردة الأبديّ». وهذا وعده: إن جعلتَ ملكوت الله محور تركيزك، جعل هو حاجاتك مسؤوليّته. «فَلاَ تَهْتَمُّوا لِلْغَدِ، لأَنَّ الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ. يَكْفِي الْيَوْمَ شَرُّهُ» (عدد ٣٤). كُفّ عن استعارة همّ المستقبل، فلديك نعمةٌ تكفي لليوم.

فيسأل يسوع مرّةً أخرى: «مَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يُضِيفَ لَحْظَةً وَاحِدَةً إِلَى حَيَاتِهِ؟»، والجواب لا يزال: لا. لا تستطيع أن تضيف لحظةً بالقلق، لكنك تستطيع أن تضيف سلامًا بالثقة. لن أنسى أمَّا شابّة زرتُها في المستشفى، جالسةً بجانب رضيعها الموصول بالأنابيب والأجهزة، لا تدري إن كان سيتجاوز الليل. توقّعتُ أن أرى خوفًا، لكنني وجدتُ إيمانًا؛ كانت تدندن ترنيمةً والدموع في عينيها. حين سألتُها كيف تبقى هادئةً هكذا، قالت: «لستُ هادئةً لأنني قويّة، بل لأنني أدركتُ أخيرًا أنني لا أملك السيطرة. الله يمسكه، والله يمسكني». ذلك الطفل اليوم حيٌّ ومعافى، لكن حتى لو لم يكن، فتلك الأمّ كانت قد بدّلت قلقها بعبادة. هذا ما يدعوك يسوع لتفعله. لا يطلب منك أن تتظاهر بأنك بلا مشاكل، بل أن تثق به حين تكون لك مشاكل. فهذا هو التحدّي: لا تقلق فحسب، بل اعبُد؛ لا تذعَرْ فحسب، بل صَلِّ؛ لا تطلب السيطرة فحسب، بل اطلب الملكوت. لأنك لا تستطيع أن تضيف لحظةً واحدةً إلى حياتك بالقلق، لكنك تستطيع أن تضيف معنًى لكل لحظةٍ بالثقة بمن يمسك كل شيء.

أسئلة للتأمل

1. يقول يسوع إن القلق هو «عبادة في الاتجاه الخطأ». ما الذي كان يستحوذ على انتباهك وطاقتك مؤخّرًا، وكيف قد يبدأ تحويل ذلك التركيز نفسه إلى شكرٍ وعبادةٍ في تهدئة نفسك؟
2. أين كانت غريزتك الأولى تحت الضغط هي الذعر بدلًا من الصلاة؟ كيف سيبدو هذا الأسبوع أن تجعل الصلاة استجابتك الأولى—لأولادك، ومالك، وصحّتك، ومستقبلك—بدلًا من ملاذك الأخير؟
3. «اطلبوا أوّلًا ملكوت الله». القلق ينمو حيثما لا يكون الله أوّلًا. ما الذي يحتلّ المرتبة الأولى في حياتك الآن، وما الخطوة الواحدة التي يمكنك اتّخاذها لتضع ملكوته هناك بدلًا منه؟